النِّدَاءُ الإيماني للنهي عن اتخاذِ الكُفَّار أولياء في القرآن الكريم

د. عوض محمد أحمد كمبال

المقدمة .

الحمدلله ربُّ العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين ، سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه ، وعلى التابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين .

أما بعد - فالبحث الذي بين يديك – أيها القارئ- هو عبارة عن بحث متواضع ، نتحدث فيه عن آيات مباركة ، استهلها الله سبحانه وتعالي بقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا...﴾ ، فهي تبدأ بالنِّداء والتّنبيه وصفة الإيمان ، ويَعْقُبُ ذلك النّهي عن الاتخاذ المذموم ، وهو اتخاذ الكفار أولياء ، والآيات التي جاءت بالأسلوب المتقدم، هي ستُّ آياتٍ في كتاب الله تعالي ، وكلها تصبُّ في معين واحد ، وذلك على الرغم من اختلاف موضوع تلك الآيات ، ولهذا فقد جعلنا البحث مكوّناً من ستة مباحث ، إذْ جعلنا كلَّ آية بحثاً مستقلاً، وموضوعاً على حدة، ولا يفوتني أن أُؤكّد بأنَّ موضوع الولاء والبراء، قد تناوله البعض بالكتابة ، ولكن مع ذلك لم أقف على من تناوله مُفصَّلاً على هذه الآيات السّت ، التي هي موضوع هذا البحث ، فلم أقف على ذلك بالطريقة التي تحدثت عنها إلى كتابة هذه المقدمة ، وقد لفت انتباهي في هذه الآيات، أنها تتفق جميعاً في بدايتها بالنداء والتنبيه، واصفةً لمن وُجِّه إليهم النَّهْيُ بالإيمان ، ثم يلي ذلك النهي عن اتخاذ الكفّار أولياء – كما ذكرنا ذلك في مستهلّ هذه المقدمة ، وهذا قمة في البلاغة والسّبك والإبداع والتنظيم ، وهذا ما دعاني للكتابة في هذا الموضوع .

والله أسأله التوفيق

المبحث الأول: النَّهْيُ عن الحُبِّ والولاء لأهْلِ الكتاب .

قال تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا اليَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي القَوْمَ الظَّالِمِينَ...) [١]

ما سبب النزول ؟

اختلف المفسرون في سبب نزول هذه الآيات الكريمات ، فذكر السُّدّى : أنها نزلت في رجلين ، قال أحدُهما لصاحبه بعد وقعة أُحد : أمّا أنا فإني ذاهبٌ إلى ذلك اليهودي ، فآوِى إليه، وأتهوّد معه ، لعله ينفعني إذا وقع أمر أو حدث حادث . وقال الآخر : أما أنا فإني ذاهب إلى فلان النصراني بالشام ، فآوِى إليه ، واتنصَّر معه ، فأنزل الله : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا اليَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ) الآيات ، وقيل نزلت في أبي لبابة بْنِ عبدالمنذر ، وذلك حين بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى يهود بني قُريظة ، فسألوه ماهو فاعلٌ بهم ؟ فأشار عليهم بالذبح فنزلت .وقيل نزلت في عبادة بن الصامت، حين تبرأ من مُوالاة اليهود ، وفي عبدالله بن أُبيّ، حين تمسك بولايتهم ، ففيهما نزلت : (وَمَنْ يَتَوَلَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الغَالِبُونَ) . وقيل غير ذلك . [٢]

ما المراد من هذه الآيات ؟

في هذه الآيات لما حكي الله تعالي عن أهل الكتاب، أنهم تركواْ العمل بالتوراة والإنجيل ، وحكم عليهم بالكفر والظلم والفسوق ، حذر تعالى في هذه الآيات من موالاة اليهود والنصارى ، ثم عدد جرائم اليهود، وما اتهمواْ به الذات الإلهية المقدسية ، من شنيع الأقوال وقبيح الأفعال – نهي في الآيات عن موالاتهم بالنصر والاستنصار والمصافاة والمعاشرة ، وقوله :(بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ) ، أيْ هم يد واحدة على المسلمين، لاتحادهم في الكفر والضلال ، وملة الكفر واحدة، وقوله : (وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ) ، أيْ هو في جملتهم ، وحكمه كحكمهم ، وهذا تغليظ من الله، وتشديد في مجانية المخالف في الدين واعتزاله، وقوله : (وَاللهُ لَا يَهْدِي القَوْمَ الظَّالِمِينَ) ، أيْ لا يهد يهم إلى الإيمان [٤] . ولكن مع هذا النهي الإلهي والتحذير ، فالذين في قلوبهم مرض ونفاق ، يسارعون في اتخاذهم أولياء ، ويعتذرون بأعذار واهية ، خوفاً من هؤلاء الأعداء ، وذلك كأمثال عبدالله بن أُبيّ ونحوه ، وهو تعالى إذْ يحذر من هؤلاء ، ومن موالاتهم يُرشد المؤمنين الى الولاية الصحيحة ، التي لا عداوة فيها ، ولا حقد ولا حسد ، فيقول تعالى في آيات تالية :

---

(١) المائدة : ٥٣/٥٢/٥١ .

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ، ج٢ ، ص : ٦٩/٦٨ ، دار التراث .

(٣) المرجع نفسه ، ص : ٦٨

(٤) انظر : صفوة التفاسير، للشيخ محمد علي الصابوني ، جـ١ ، ص : ٣٣ ، دار الصابوني .

(إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا) ، هذه هي الولاية الصحيحة ، ولاية المولى عزّ وجلّ ، وولاية رسوله صلى الله عليه سلم ، وولاية المؤمنين ، الذين اختاروا هذا الدين ، وجعلوه مرشداً وقائداً لهم ، فالولاية إذن قسمان، ولاية ممنوعة منهيٌّ عنها ، وولاية جائزة مأمورٌ بها ، وعلى المؤمن أن يبتعد من الولاية التي نُهِيَ عنها ، ويختار الولاية الصحيحة ، ولا تصحّ المحاباة هنا ولا التملّق، بعد الأدلة الواضحة . فالآية التي نتحدث عنها تدل على قطع الموالاة شرعاً ، والمنادَى في الآية هم المؤمنون ، والندآء بياء النداء المستخدمة للبعيد للإشارة إلى رفعة المنادي وسمّو مكانته ، وأنه أهلٌ لما سوف يكلَّفُ به ، ثم بعد ذلك التنيه بـــ(ها) ،التي جاءت بعد أسلوب الندآء ، وذلك يستدعى الإهتمام والإنتباه للأمر الذي يُراد امتثاله ، وخيرُ حافزٍ للقيام بذلك هو صفة الإيمان، التي هي أشرف ما يوصف به الآدمى ، فبعد هذا الندآء ، والتنبيه الذي بعده ، وصفة الإيمان ، لا يليق بالمؤمن إلا الإمتثال لما هو مأمور به ، والتخلّي عن ولاية هؤلاء .
ومع ذلك فقد قيل إن المنادَي هنا المنافقون ، والمعني : يأيها الذين آمنوا بظاهرهم ، وكان هؤلاء يُوالُون المشركين ، ويخبرونهم بأسرار المسلمين [١] .

وفي قوله تعالي : (بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ) ، دليل على إثبات الموالاة بين اليهود والنصارى ، ولهذا يُعتبرون ملّة واحدة ، ويمكن التوارث بينهم . وفي هذه المسألة خلافٌ بين العلماء ، وهو أن الكفار هل يُعتبرون ملّة واحدة فيتوارثون، أم هم ملل فلا يتوارثون ؟ فهناك من يقول بالأوّل، وهناك من يقول بالثاني [٢] .

وقوله تعالي : (وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ) منعٌ لميراث المسلم من المرتد[٣].ويقول القرطبي في هذا المقام : وكان الذي تولّاهم هو عبدالله ابن أُبي ، ثم إنَّ هذا الحكم باقٍ إلى يوم القيامة في قطع الموالاة ،قال تعالي : (وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ) [٤]، وقال : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ البَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ) [٥] [٦] .

(١) انظر : تفسير القرطبى ، ج٣ ، ص : ٥٦٥، دار الحديث القاهرة
(٢) المرجع نفسه ص٥٦٥
(٣).المرجع نفسه ص ٥٦٥
(٤) سورة هود :رقم الآية ١١٣
(٥) سورة آل عمران : رقم الآية ١١٨ .
(٦) انظر : تفسير القرطبى : ج٣ ، ص : ٥٦٦ مصدر سابق.

ولكن على الرّغم من ذلك – فالمؤمن مُطالبٌ بالسماحة مع أهل الكتاب وغيرهم ، فإنّ منهم من يعاملون المسلمين تعاملاً طيباً ، فالمعاملة تقابلية ، ولكن بدون أن نتخذهم أولياء ، وهذا ما تدلّ عليه سماحة الإسلام، وتعامله الإنساني الكريم .

المبحث الثّاني : عدم موالاةِ أهْلِ الكتاب والكُفَّار.

وذلك قوله تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) (٧) .

هذه الآية قريبةُ المعنى من الآيات السابقة ، وهي أيضاً من سورة المآئدة ، وتتجه في نفس مسار الآيات المتقدمة ، فهي أيضاً تنهي عن الموالاة ، ولكن الموالاة لمن ؟ لأهل الكتاب والكُفَّار .

ما سبب النزول ؟

قيل إنها نزلت في قوم من اليهود والمشركين، ضحكواْ من المسلمين وقت سجودهم (٨).وعن ابن عباس رضي الله عنهما : قال : كان رفاعة بن زيد ، وسويد بن الحارث ، قد أظهرا الإسلامَ ثم نافقا ، وكان رجال من المسلمين يوادونهما، فنزلت الآية (٩)، وقيل غير ذلك .

توضيح الآية .

هذه الآية الكريمة هي سلسلة من الآيات التي تتحدّث عن هؤلاء الأعداء ، والذين لا يخفى على أحد مكرهم على الدين الإسلامي ، ومعاداة أهله ما أمكن ذلك ، فتاريخهم مليءٌ بالمكر والكيد والحقد على هذا الدين ، ولا يزالون يواصلون ذلك المسلسل ، الذي يكون إضافة سوداء إلى تاريخهم الأسود .

والله جل شأنه في هذه الآية المباركة يُنادي المؤمنين ، ويحذّرهم سبحانه وتعالى من اتخاذ أهل الكتاب والكُفّار أولياء ، لأنهم اتّخذواْ هذا الذين هزؤاً ولعباً ، فلا تصح مصادقة هؤلاء ولاموادّتهم ، ولا الاعتماد عليهم ، وهل مثل هؤلاء يمكن أن يتولّواْ المؤمنين ؟

ثم إنّ المستهزئين، الذي اتخذوا الدين هزؤاً ولعباً، قيل هم أهلُ الكتاب والكُفَّارُ غيرهم ، وقيل هم أهل الكتاب فقط ، فهم الذين كانوا يسخرون من المسلمين وقت سجودهم ، وقيل كانوا يسخرون منهم لأجل هذا الدين ، وعليه فالكُفّار غير داخلين في اتخاذ الدين هزؤاً

(٧) المائدة : ٥٧ .

(٨) انظر : تفسير القرطبى ، م٣ ، ص : ٥٧١ .

(٩) صفوة التفاسير ، محمد علي الصابوني ، جـ١ ، ص : ٣٢٩ .مصدر سايق.

ولعباً ، وإن قال تعالى عنهم في آية : (إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ) [١]، إذ المراد بهم هنا مشركو العرب ، ومن هنا قالوا إنّ المراد من ذكرهم، هو النهي عن موالاتهم [٢].

فائدة : كلمة (والكُفّار) في الآية فيها قراءتان :

الأُولى : الخفض ، وهي لأبي عَمْرو والكسائي ، والمعنى : ومن الكُفّارِ ، قال الكسائي : وفي حرف أُبَـيّ رحمه الله : (ومِنَ الكُفّارِ)، و (من) ههنا لبيان الجنس ، والنّصْب أوضحُ وأبينُ ، وقيل هو معطوف على أقرب العَامِلَيْنِ منه، وهو قوله : (مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ) فنهاهم الله أن يتخذوا اليهود والمشركين أولياء ، وأعلمهم أن الفريقين اتخذوا دين المؤمنين هزؤاً ولعباً.

الثانية : النصب ، فمن نصب عطف (والكُفّار) على (الذِّين) الأوّل في قوله : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ) ، أي لا تتخذوا هؤلاء أولياء ، فالموصوف بالهزؤ واللعب في هذه القراءة اليهود لا غير ، والمنهي عن اتخاذهم أولياء اليهود والمشركين ، وكلاهما في قراءة الخفض موصوف بالهزؤ واللعب ، قال مكّي : ولولا اتفاق الجماعة على النصب، لاخترت الخفض، لقوته في الإعراب ، وفى المعنى والتفسير ، وفي القرب من المعطوف عليه [٣] .

الاستعانة بالكفار .

نعنى بالكفار ما يشمل أهل الكتاب ، فهم أيضا كفار ،والأدلة في هذا كثيرة لا تحتاج إلى ذكر وتوضيح ،وما نريده هو حكم الاستعانة بهم ،قال ابن خويز منداد [٤] : هذه - أي الآية موضوع البحث - مثلُ قوله تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ) ، وقوله : (لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ) تضمنت المنع من التأييد والانتصار بالمشركين ونحو ذلك ، وروي جابر : أن النبي صلى الله عليه وسلم لما اراد الخروج إلى أحد جاءه قوم من اليهود فقالوا : نسير معك ، فقال : (إنّا لا نستعينُ على أمرنَا بالمشركين) [٥] .

---

(١) سورة الحجر :رقم الآية ٩٥ .

(٢) انظر : تفسير الآلوسى ، جـ٦ ، ص : ٢٦٤ ، دار الثقافة - بيروت .

(٣) انظر : تفسير القرطبى ، م٣ ، ص : ٥٧٢ .

(٤) هو أبوعبدالله محمد بن أحمد بن عبدالله بن خُويز منداد البصرى المالكي ، من مواليد القرن الرابع الهجري ، وكانت وفاته سنة : ٣٩٠هـ . وهو من أعيان المذهب المالكي . انظر : ترتيب المدارك ، للقاضي عياض ، م٢ ، ص : ٣٠٦ . والديباج لابن فرحون ، ص : ٢٦٨ .

(٥) انظر : صحيح مسلم ، (كتاب الجهاد) ، باب كراهية الإستعانة في الغزو بكافر ، ١٤٤٩/٣ ، ١٤٥٠

(٦) انظر : تفسير القرطبى ، مصدر سابق م٣ ، ص : ٥٧٢ .

وهذا هو الصحيح من مذهب الشافعي ، وأما أبو حنيفة فقد جوز الانتصار بهم على المشركين للمسلمين ، وكتاب الله يدل على خلاف ما قالوه ، مع ما جاء من السنة في ذلك، والله أعلم. (٦).

ويقول ابن كثير(٧)بعد ذكره لهذه الآية والآية التي بعدها وهي : (وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ) ، قال : وهذا تنفير من موالاة أعداء الإسلام وأهله من أهل الكِتَابَيْنِ والمشركين ، الذين يتّخذون أفضل ما يعمل العاملون، من شرائع الإسلام المطهرة والمحكمة، المشتملة على خير دنيوي وأخروي ، يتخذونها هزوا يستهزئون بها ، ولعباً يعتقدون أنها نوع من اللعب في نظرهم الفاسد ، وفكرهم البارد .

وقوله : (وَاتَّقُوا اللهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)، أي اتقوا الله أن تتخذواْ هؤلاء الأعداء أولياء لكم ولدينكم ، إن كنتم مؤمنين بشرع الله تعالى ، الذي اتخذه هؤلاء هزواً ولعباً كما قال تعالى : (لَا يَتَّخِذِ المُؤْمِنُونَ الكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ المُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللهِ المَصِيرُ)(١).

وأما قوله :(وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ)، أيْ وإذا أذنتم داعين إلى الصلاة التي هي من أفضل الأعمال لمن يعقل ويعلم من ذوى الألباب : (اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ) أىْ معاني عبادة الله وشرائعه ، وهذه صفات اتباع الشيطان ، الذي يُدْبِرُ عند سماع الآذانِ .

والله سبحانه وتعالى بقوله : (وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ) ، أراد أن يُبيّن جانباً من استهزائهم بهذا الدين ، ومدى سخريتهم وحقدهم، وحسدهم تجاه الرسول صلى الله عليه وسلم والمسلمين . ويُقال إنهم عندما سخروا من النداء انزل الله قوله : (وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ المُسْلِمِينَ) (٢) .والدعاء إلى الله المراد به هنا النداء إلى الصلاة .(٣) .

ومن كلّ ما تقدّم، ندرك تماماً بأن الإسلام ينهي عن مصادقة اليهود والنصارى والمشركين، والابتعاد عنهم ، ولا سيّما اليهود ، الذين لهم تاريخ بارز، في مكائدهم مع رُسلِ الله وأنبيائه عليهم الصلاة والسلام ، وقد كان لنا نحن المسلمين النصيب الأكبر من مكائدهم ، وكان الإيذاء بالقول والفعل، هو الأسلوب الذي اتبعه اليهود مع الرسول صلى

(٧) انظر : تفسير ابن كثير ،مصدر سابق، م٢ ، ص : ٧٢ .

(١) سورة آل عمران رقم الآية ٢٨
(٢) سورة فصلت رقم الآية فصلت : ٣٣ .
(٣) انظر : تفسير القرطبى ، مصدر سابق. ج٣ ، ص : ٥٧٢ .

الله عليه وسلم ،منذ بداية دعوته في المدينة المنورة ، وتطور ذلك حتى حاولوا اغتياله صلى الله عليه وسلم ، والتاريخ حافل بمثل هذه الأخبار ، وكفى به شاهداً ودليلاً .

المبحث الثالث: النهي عن البطانة الكافرة .

يقول تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآَيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾(٤)

معنى البطانة

البطانة مصدر يُسمّى به الواحد والجمع ، وبطانة الرجل خاصته، الذين يعرفون أسراره الخاصة ، ويُطْلَقون على الذين يعرفون ما لا يعرفه الآخرون من الخصائص والأسرار ، فكل من يخصه الإنسان بمزيد التقريب يسمى بطانة ، لأنه بمنزلة ما يلي البطن في شدة القرب .والبطانة خلاف الظِّهارة ، وأبطنت الرجل : إذا جعلته من خواصِّك (٥)

توضيح الآية .

تستهل الآية الكريمة بأسلوب النداء ، الذي يعقبه تنبيه للمنادي ، وذلك حتي ينتبه لما يُريده منه ذلك المنادي العظيم، ثم صفة الإيمان بالله تعالى ، الّتي تقتضي الاهتمام والامتثال لما يصدر من الأوامر والنواهي الإلهية ، وفي الآية نهي عن اتخاذ أوليك الأعداء بطانة للمسلمين ، يكشفون اليهم أسرارهم، وبواطن أمورهم، ولاسيما إذا كان في أسرار الدولة ، والأشياء العامة التي تهم المسلمين ، وذلك لأنهم يكشفون تلك الأسرار لأعداء المسلمين ، وبالتالي يؤدي ذلك إلى مالا تُحمد عقباه ، ولهذا فقوله : (مِنْ دُونِكُمْ) ، أيْ من دون المسلمين ، ومن غير أهل ملّتكم . والله سبحانه وتعالى لما ذكر في آيات سابقة أحوال المؤمنين ، شرع في تحذير المؤمنين من اتخاذ هؤلاء بطانة وأمنة على الأسرار والأمور الخاصة.

وقد اختلف العلماء في الذين نُهِيَ عن اتخاذهم بطانة في هذه الآية على النحو التالي (١)

(١) قيل هم : اليهود ، لأن المسلمين كانوا يشاورنهم ويؤانسونهم ، لما بينهم من بعض الصِّلات ، فنهاهم الله عن ذلك ، ولأصحاب هذا القول أدلّتهم التي يعتمدون عليها .

(٢) وقيل هم : المنافقون ، وذلك لأن المسلمين كانوا يغترّون بظاهر كلامهم ، ويظنون أنهم صادقون ، فيفشون إليهم الأسرار والأحوال الخفية ، فمنع الله تعالى من ذلك ، ومن أدلة هؤلاء أن بعد هذه الآية ما يدل على ذلك ، وهو قوله تعالى : (هَا أَنْتُمْ

---

(٤) سورة آل عمران رقم الآية١١٨

(٥) لسان العرب، ابن منظور،مصدر سابق،ج١٣ ص٥٢.

(١) انظر : تفسير القرطبى ، مصدر سابق ، ج٢ ، ص : ٥٣٥ .

أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آَمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ) (٢)، وهذا من صفات المنافقين لا اليهود، ونظيره قوله تعالى : (وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آَمَنُوا قَالُوا آَمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ)(٣) .

(٣) وقيل المراد : جميع الكفار .ودليله قوله تعالى : (مِنْ دُونِكُمْ) ، فجمع الله المؤمنين ، فيكون ذلك نهياً عن جميع الكفار ، وقال تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ)(٤) فالمعنى : أن هؤلاء لا يُقصّرون في إفسادكم ، ولهذا نهى الله عن اتخاذهم محلاً لأسرار المسلمين ، فهم ليسوا أهلاً لذلك ، ولهذا فلا ينبغي أن نتّخذ رجال أمن واستخبارات من هؤلاء ، وذلك في أيِّ دولة إسلامية ، ولو كانوا من الرعية الذين هم داخل الدولة ، لأنهم سيكونون عيوناً على تلك الدولة الإسلامية ، ويَفْشُون أسرارها لإخوانهم وبنى جلدتهم .وقولُه : (وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ) ، أيْ فهم يتمنَّون لكم العنت وهو التعب والمشقة ، وذلك بخلق المشاكل والخصومات والنزاعات . وفي قوله تعالى: (قَدْ بَدَتِ البَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ) ، أيْ قد لَاحَ على صفحات وجوههم ، وفلتات ألسنتهم ، مع ما اشتملت عليه صدورهم من البغضاء للإسلام وأهله ، ما لا يخفى مثله على لبيب عاقل ، ولهذا قال تعالى : (قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآَيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ) ، ولهم صفات كثيرة تدل على ما ذكرنا.

المبحث الرَّابع: النَّهْيُ عن موالاةِ الكُفّار عامّة

قال تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ المُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا للهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا)(٥) .

تشير الآية إلى مسألة مهمّة للغاية ، مسألةٌ نصّ الله تعالى عليها بنفسه في هذه السورة المباركة ، وتلك المسألة هي النهي عن اتخاذ الكافرين عامة أولياء ، يتولّون أمور المسلمين ، ويطّلعون على أسرارهم ، وبالتالي يكونون عقبة ضد التيار الإسلامي ، ويُشعلون نار القتال والفتن بين المسلمين ، قال ابنُ كثير : نهى الله تعالى عباده المؤمنين عن اتخاذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين ، يعني مصاحبتهم ، ومصادقتهم ، وإسرار

(٢)سورة آل عمران :رقم الآية ١١٩ .

(٣) سورة البقرة :رقم الآية ١٤

(٤)سورة الممتحنة : رقم الآية١

(٥) سورة النساء رقم الآية ١٤٤.

المودة إليهم ، وإفشاء أحوال المؤمنين الباطنة إليهم، كما قال تعالى : (لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللهِ الْمَصِيرُ)(٦) ، أيْ يُحذّركم عقوبته في ارتكابكم نهيه ، ولهذا قال : (أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا للهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا)، أيْ حُجَّة عليكم في عقوبته إيّاكم . وعن ابن عباس : كلُّ سلطان في القرآن حجّة(٧).

فلا ينبغي ترك موالاة المؤمنين ، لأنّ الله تعالى أمر بموالاتهم ، أما هؤلاء الأعداء، فلا تجوز موالاتهم بالمصاحبة والمصادقة ، ومن يتولّى هؤلاء فقد جعل لله حجة على أنه منافق ، وأنه مخالف لأوامر الله تعالى ونواهيه .

والآيةُ التي نحن بصدد الحديث عنها، تتوسط آيات تتحدث عن المنافقين وصفاتهم الذميمة ، وعن مكرهم وخداعهم وتملُّقهم ، فالله تعالى لما ذمّ المنافقين الذين هم تارةً مع الكفرة، وتارةً مع المؤمنين ، من غير أن يستقرّوا مع أحد الفريقين، كما قال تعالى : (مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا) (١) ، فهم عندما كانواْ كذلك نهى الله المسلمين في هذه الآية، أن يفعلواْ مثل فعلهم ، فقال:(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ) ، والسبب في ذلك أن الأنصار بالمدينة كان لهم في بني قُرَيْظة أوضاع وحِلْفٌ ومودة ، فقالوا : يا رسول الله من نتولّى . فقال : المهاجرين، فنزلت الآية ، والوجه الثاني ، وهو أن هذا نهي للمؤمنين عن موالاة المنافقين ، فكأنه سبحانه وتعالى يقول : قد بيّنتُ لكم أخلاق المنافقين ومذاهبهم، فلا تتخذوا منهم أولياء (٢) .ومما تقدم يمكن أن يكون المنهيّ عن اتخاذهم أولياء اليهود ، وهناك قول آخر وهو أنَّ المراد المنافقين لغلظ كفره ، وكثرة غوائله، وتمكنه من أذى المؤمنين .

ولا مفهوم لقوله : (**مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ**) ، ولهذا فاتخاذ هؤلاء منهيّ عنه مطلقاً ، سواء اتخذناهم أولياء على حِدة أم مع المؤمنين ، وإنما جاءت الآية بهذا الأسلوب لبيان الواقع فقط ، وهذا مثل قوله تعالى : (وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ)(٣) ، كما ذكر ذلك الأُصوليون في كلامهم على مفهوم المخالفة، وعليه فلا يصح تولّي أيِّ فريق غير فريق واحد فقط هو المستثنى ، وهو الخارج من هذه الفرق والطوائف

(٦) سورة آل عمران رقم الآية ٢٨.

(٧) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ، مصدر سابق ج٢ص٤٤١.

(١) سورة النساء رقم الآية ١٤٣

(٢) انظر : تفسير الرازي ، دار إحياء التراث العربى ج٣ ، ص : ٧٤ .

(٣) سورة النساء رقم الآية ٢٣

المتعددة ، إنه فريق المؤمنين بالله ربّاً ، وبالإسلام ديناً ، وبسيدنا محمد صلى الله عليه نبيّاً ورسولاً .

المبحث الخامس النهي عن موالاةِ الأقارب الكُفّار .

ما زالت الآيات تتوالى وتتواصل ، في النّهي عن موالاة الكفّار ، ولو كان هؤلاء من الأقارب الأقربين ، والآية الآتية وغيرها ، تؤكد وبصورة قاطعة أنه لا محاباة في هذا الموضوع ، ولا مجاملة ولا هوادة في ذلك ، ولهذا قال تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آَبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الكُفْرَ عَلَى الإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُون) (٤) .

قال ابنُ كثير (٢) – رحمه الله تعالى : وهذا أمر من الله تعالى بمباينة الكفار، وإن كانوا آباءً أو أبناءً ، ونهى عن مُوالاتهم إن استحبّوا أي اختاروا الكفر على الإيمان ، وتوعّد على ذلك كقوله : (لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآَخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ) ، وذكر الحافظ ابن كثير بعد ذلك أن والد أبي عبيدة بن الجراح، جعل ينعت الآلهة يوم بدر ، وجعل أبو عبيدة يَحيدُ عنه ، فلما أكثر الجراح قصده ابنه فقتله ، فأنزل الله هذه الآية : (لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآَخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ).(٥) وقد أمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم ، أن يتوعّد من آثر أهله وقرابته وعشيرته على الله ورسوله صلى الله عليه وسلم وجهاد في سبيله فقال : (قُلْ إِنْ كَانَ آَبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ وَاللهُ لَا يَهْدِي القَوْمَ الفَاسِقِينَ) (٦) فلا ينبغي للمؤمن أن تكون له علاقةُ صفاءٍ ووُدّ مع هؤلاء، ومن يفعل ذلك فسوف تكون عاقبته غير محمودة .

وفي الآية التحذير من ولاية الكافرين ، و أن الابتعاد عن الآباء والأقارب واجب بسبب الكفر ، ثم استطردت الآيات في تذكير المؤمنين بنصرهم في مواطن كثيرة، ليعتزّوا بدينهم ، ثم عادت الآيات إلى محذرة عن اتباع أهل الكتاب ، لأنهم كالمشركين ، يسعون لإطفاء نور الله تعالى.

ماسبب النزول ؟

---

(٤) التوبة : ٢٣ .

(٥) انظر : تفسير ابن كثير ، م٢ ، ص : ٣٤٢ .

(٦) سورة التوبة رقم الآية ٢٤

سبب النزول[١] أن الله تعالى لما أمر رسوله صلى الله عليه وسلم بالهجرة الى المدينة ، جعل الرجل يقول لأبيه وأخيه وامرأته : لقد أُمرنا بالهجرة ، فمنهم من يسرع إلى ذلك ويُعجبه ، ومنهم من تتعلّق به زوجته وولده ، فيقولون : ناشدناك الله أن تدعنا من غير شيء فنضيع ، فيرقّ لذلك ويترك الهجرة ، فنزلت الآية تُعاتبهم : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آَبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ)[٢] ، وجاء النداء في الآية بلفظ الإيمان -لماذا يا تُرى؟للتكريم للذين قُصِدوا بهذا النداء ، ولتحريك الهمة للمسارعة لإمتثال أوامر الله تعالى، قال ابن مسعودٍ رضى الله عنه :إذا سمعتَ اللهُ تعالى يقول : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا)، فارعها سمعك ، فإنه خير تؤمرُ به، أو شر تُنهى عنه [٤] .ما دام هؤلاء الأقارب استحبّوا الكفر ، واختاروه بدل الإيمان، فلا تنبغي معاملتهم كما يُعامَلُ أهل الإيمان ، ولهذا قال تعالى : (وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ) ، قال ابن عباس - رضى الله عنه : هو مشرك مثلهم ، لأن من رضى بالشرك فهو مشرك، والرضا بالكفر كفر ، كما أن الرضا بالفسق فسق.[٣]

وقال الإمام الرازى -رحمه الله تعالى عند ذكره لهذه الآية : اعلم أن المقصود من ذكر هذه الآية ، أن يكون جواباً عن شبهة أُخرى ذكروها في أن البراءة من الكفار غير ممكنة ، ذلك لأن الرجل المسلم قد يكون أبوه كافراً ، والرجل الكافر قد يكون أبوه وأخوه مسلماً ، وحصول المقاطعة التامة بين الرجل وأبيه وأخيه كالمتعذر الممتنع ، وإذا كان الأمر كذلك، كانت تلك البراءة التي أمر الله بها كالشّاق الممتنع ، فذكر الله تعالى هذه الآية، ليزيل هذه الشبهة ، فمقاطعة هؤلاء واجبة بسبب الكفر ، ولما كان النهى يتحمَّلُ أن يكون نهى تنزيه أو تحريم ذكر فى بقية الآية ما يزيل ذلك الاحتمال، فقال : (وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ) ، فقد منعت هذه الجزئية من الآية احتمال ان يكون النهى للتنزيه[٤] .

وقال الإمام القرطبي : الخطاب فى الآية خطاب لجميع المؤمنين كافة ، وهى باقية الحكم إلى يوم القيامة، في قطع الولاية بين المؤمنين والكافرين ، وروت فرقة أن هذه الآية إنما نزلت فى الحض على الهجرة ، ورفض بلاد الكفرة ، فالمخاطبة على هذا إنما هي للمؤمنين، الذين كانوا بمكة وغيرها من بلاد العرب ، خوطبوا بألاّ يُوالوا الآباء والإخوة ، فيكونون لهم سبباً في سكنى بلاد الكفر ، وخص سبحانه وتعالى الآباء والإخوة إذْ لا قرابة أقرب منهم ، فنفى الموالاة بينهم، كما نفاها بين المؤمنين وأهل الكتاب بقوله تعالى : (**يَا**

---

(١) تفسير الرازي ،مصدر سابق، ج٨ ، ص : ١٧ .

(٢) سورة التوبة رقم الآية ٢٣

(٣) تفسير القرطبي ،مصدر سابق ج٤ ، ص : ٤٤١

(٤) تفسير الرازي ،مصدر سابق، ج٨ ، ص : ١٧ .

أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا اليَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ) ، ليبين أن القرب قرب الأديان لا قرب الأبدان ، ولم يذكر سبحانه وتعالى الأبناء في هذه الآية ، إذ الأغلب أن الأبناء تبع لآبائهم ، ثم إن الإحسان والهبة مستثناة من الولاية(٥) ، قالت السيدة أسماء : يا رسول الله : إن أمي قدمت عليّ راغبة وهى مشركة أفأصلها ؟ قال :(صلى أمّك) (٦).

فالهديّة والصدقة والهبة للأقارب الكفّار، ليست مما نُهيَ عنه ، ولا يكون ذلك من باب اتخاذهم أولياء . وقيل إن الآية نزلت في المهاجرين، لما أُمرُوا بالهجرة إلى المدينة، قالواْ : إن هاجرنا قطعنا آباءنا وأبناءنا وعشيرتنا ، وذهبت تجارتنا ، وهلكت أموالنا ، وخربت ديارنا ، وبقينا ضائعين ، فنزلت الآيةُ فهاجرواْ ، فجعل الرجل يأتيه ابنه أو أبوه أو أخوه أو بعضُ أقاربه، فلا يلتفتُ إليه ولا يُنزلُه ، ولا يُنفقُ عليه ، ثم رُخّص لهم في ذلك . وقيل نزلت في التسعة الذين ارتدواْ ولحقواْ مكة، نهياً عن موالاتهم ، وقيل نزلت في حاطب بن أبى بلتعة ، لما كتب إلى قريش، يُخبرهم بقدوم النبي صلى الله عليه وسلم لفتح مكة ، وهذا وغيره يقتضى أن هذه الآية نزلت قبل فتح مكة ، وإذا قيل بأن هذه السورة إنما نزلت بعد فتح مكة ، فكيف يكون سبب النزول ما ذكر؟ وأُجيبَ بأن نزولها قبل الفتح، لا يُنافي كون السورة نزلت بعد الفتح ، لأن المراد معظمها وصدرها ، وعلى القول بأنها نزلت في حاطب ، فالمعتبر عموم اللفظ لا خصوص السبب ، فيدخل حاطبٌ في عموم اللفظ النّاهـي عن الاتخاذ بلا شبهة(١)

والله سبحانه وتعالى ختم الآية التي هي موضوع بالبحث، بوصف من اتخذ هؤلاء المذكورين أولياء بالظلم ، والظالمون من الملعونين في القرآن الكريم ، فقد قال تعالى : (ألا لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ) ، واللعن هو الطرد والإبعاد عن رحمة الله تعالى ، وهذا في قمة التهديد والتخويف والتهويل ، وخُتمت الآيةُ التي تليها بقوله : (فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ وَاللهُ لَا يَهْدِي القَوْمَ الفَاسِقِينَ)، أي الخارجين عن الطاعة في موالاة المشركين ، وتقديم محبة من ذُكِرَ على محبة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم. والمعنى : أن الله لا يهديهم إلى ما هو خير لهم ، والآية أشدُّ آية نعت على الناس مالا يكاد يتخلّص منه إلا من تداركه الله سبحانه بلطفه (٢)

المبحث السادس: صحابيّ جليلٌ وقصَّته مع الموالاة .

---

(٥) تفسير القرطبي ،مصدر سابق ج٤ ، ص : ٤٤١

(٦) أخرجه البخاري، كتاب الهبة وفضلها، باب الهدية للمشركين، حديث رقم ٢٤٧٧

(١) تفسير الإمام الرازي ، مصدر سابق جـ١ ، ص : ٧٠ .

(٢) تفسير ابن كثير ، مصدر سابق ج٤ ، ص : ٣٤٥/٣٤٤ ،

قال تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ) (٣) آية عظيمة من سورة مباركة ، وهي سورة الممتحنة، بفتح الحاء أو كسرها ، وتُسمَّى أيضاً – سورة الامتحان، وسورة المودة ، والاسم الأول هو المشهور الذي جاء في المصاحف، وفي كتب التفسير والسُّنة ، وجاء على أَلْسِنةِ القراء.

فالآية المتقدّمة تنهى عن موالاة الأعداء ، ولو كان ذلك لمصلحة أو رفع مضرة ، وذلك ليس على إطلاقه ، وإنما يحتاج الأمر إلى توضيح وتفصيل .

سبب النزول .

نزلت هذه الآية وآيات بعدها، في حاطب بن أبى بلتعة ، وذلك أن حاطباً كان رجلاً من المهاجرين ، وكان من أهل بدر أيضاً ، وكان له بمكة أولاد ومال ، ولم يكن من قريش أنفسهم ، بل كان حليفاً لعثمان ، فلمّا عزم رسول الله صلى الله عليه وسلم على فتح مكة لما نقض أهلها العهد ، وأمر المسلمين بالتجهيز لغزوهم ، عمد حاطب بن أبي بلتعة، وكتب كتاباً وبعثه مع امرأة من قريش إلى أهل مكة ، يُعلمهم فيه بما عزم عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوهم، ليتخذ بذلك عندهم يداً ، فأطلع الله رسوله صلى الله عليه وسلم على ذلك، ، فبعث صلى الله عليه وسلم سيدنا علياً والزبير بن العوام، والمقداد بن الأسود، في إثر تلك المرأة، فأدركوها في مكان يقال له روضة خاخ، وأخذوا منها الكتاب، وأتوا به فإذا فيه من حاطب بن أبي بلتعة، إلى أُناس من المشركين بمكة، يخبرهم ببعض أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يا حاطب ما هذا ؟) ، فقال : لا تعجل عليّ ، إني كنت امرأً ملصقاً في قريش، ولم أكن من انفسهم، وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون أهليهم بمكة ، فأحببتُ إذ فاتني ذلك من النسب فيهم، أن اتخذ فيهم يداً يحمون بها قرابتي ، وما فعلت ذلك كفراً ولا ارتداداً عن ديني ، ولا رضاً بالكفر بعد الإسلام ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إنه صدقكم) .

إنه سبب نزول طويل كما تراه ، نزل في ذلك الصحابي الجليل ، الذي ضم إلى الصحبة كونهُ مهاجراً، وكونهُ من الذين شهدوا معركة بدر ، وهم الذين امتازوا بغفران الله تعالى لهم، ورضاه عليهم .

توضيح الآية .

---

(٣) سورة الممتحنة رقم الآية ١

استهلّتِ السورة بهذه الآية ، التي نادى الله فيها المؤمنين ناهياً لهم عن موالاة الأعداء من المشركين والكفار ، والذين هم محاربون لله ولرسوله صلى الله عليه وسلموهذا نظير قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا اليَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ)(١) وهذا تهديد شديد ووعد أكيد ، وقال تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) (٢)، ومثلها قوله تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ المُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا للهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا)(٣) ويستثنى من ذلك مصانعتهم قال تعالى: (لَا يَتَّخِذِ المُؤْمِنُونَ الكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ المُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللهِ المَصِيرُ)(٤) ولهذا قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم عذر حاطب ، لما ذكر أنه إنما فعل ذلك مصانعة لقريش ، لأجل ما كان له عندهم من الأموال والأولاد (٥).

عموم الخطاب في الآية ..

سبب النزول هي قصة الصحابي حاطب بن أبي بلتعة كما قدمنا ، ولكن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب على أرجح أقوال العلماء ، فحاطبٌ وإن كان هو السبب في النزول لهذه الآيات، ولكن يبقى الخطاب عام لكل أفراد الأمة ، فلا يجوز اتخاذ الكفار أولياء ، لا لحاطب ولا لغيره ، فالإسرار إليهم بالمودة والنصح، لا يجوز لهؤلاء الأعداء .

ما السبب في النهي عن موالاتهم ؟

بيّن ذلك الله تعالى قائلاً: (وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ)، وفي هذا تهييج على عداوتهم وعدم موالاتهم ، وذلك لأنهم أخرجوا الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه من بين اظهرهم، كراهة لما هم عليه من التوحيد، وإخلاص العبادة لله وحده ، وهذا كقوله تعالى : (الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللهُ)(٦)

---

(١) سورة المائدة رقم الآية ٥١

(٢) سورة المائدة رقم الآية ٥٧

(٣) سورة النساء رقم الآية ١٤٤.

(٤) سورؤة آل عمران رقم الآية ٢٨.

(٥) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم ، مصدر سابق ج٤ص٤١٦.

(٦) سورة الحج رقم الآية رقم الآية٤٠

قبول العذر من حاطب.

قَبِلَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم صلى الله عليه وسلم عذر حاطب كما قدمنا في سبب النزول ، وعندما قال سيدنا عمر لرسول الله صلى الله عليه وسلم : (دعني أَضْرِب عُنُقَ هذا المنافق) أجابه رسول الله صلى الله عليه وسلم قائلاً : (إنه قد شهد بدرا وما يدريك لعل الله أن يكون قد اطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم)(٧) .فحاطب كان صادقاً ومخلصاً لهذا الدين ، ولهذا قَبِلَ النبي صلى الله عليه وسلم عذره الذي أخرجه من قلْب سليم ، إضافة إلى أنه من البدريّين ، الذين تميزوا بغفران الذنوب والخطايا والآثامْ .

وبصفة عامة – فان مطلع سورة الممتحنة يتناول قصة هذا الصحابي ، وتُلقى عليه أنواعاً من اللوم والتوبيخ ، بسبب ما بدر منه تجاه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد يُعتبر مثل ذلك تجسُّساً ، وكشفاً لأسرار المسلمين، ، لأن مثل ذلك قد يؤدي إلى كشف الخطط الحربية والعسكرية ، وبالتالي قد يكون سبباً في هزيمة نكراء ، ويجر المسلمين إلى ما لا تُحمد عقباهُ ، ولهذا كله نُهِيَ عن موالاة الأعداء ، وشُدّد وتُوعّد في كشف الأسرار إليهم ، ولكن هذا فيمن يريد هزيمة المسلمين، وإضعافهم وكسر شوكتهم ، ولم يكن كذلك هذا الصحابي الجليل ، وإنما كان هدفه فقط أن يتخذ عند كفار مكة يداً، ليحموا له أولاده وأمواله بمكة ، ولهذا ناداه الله تعالى في مستهل السورة بصفة الإيمان.

(٧)أخرجه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب الجاسوس ، رقم الحديث ٢٨٤٥.

فهرس المصادر والمراجع

١- القرآن الكريم .

٢- تفسير القرآن العظيم ، للحافظ عماد الدين – أبو الفدآء اسماعيل بن كثير الدمشقي ، مكتبة دار التراث – القاهرة .

٣- ترتيب المدارك ، للقاضي عياض اليحصبي المالكي ، دار الفكر ، بيروت .

٤- التفسير الكبير أو مفاتح الغيب ، للامام فخرالدين الرازي ، تحقيق :عماد زكي البارودي ، المكتبة التوفيقية .

٥- الجامع لأحكام القرآن ،لأبي عبدالله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبى ، تحقيق : الدكتور محمد إبراهيم الحفناوى وآخر ، دار الحديث – القاهرة .

٦- ترتيب المدارك ، للحافظ عماد الدين – أبو الفدآء اسماعيل بن كثير الدمشقي ، مكتبة دار التراث – القاهرة .

٧- الديباج المذهب ، للعلاّمة ابن فرحون المالكي ، دار الفكر ، بيروت .

٨- حاشية العلامة الشيخ أحمد الصاوي المالكي على تفسير الجلالين ، الطبعة الحلبية .

٩- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ، للعلامة شهاب الدين السيد محمود الآلوسي البغدادي ، إدارة الطباعة المنيريّة .

١٠- سنن أبي داود ، للامام أبـي داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق الأزدي السِّجستانى، المتوفي سنة : ٢٧٥.

١١- سنن الدّارمي ، لأبي عثمان سعيد بن منصور بن شعبة المروزي الطالقاني ، المشهور بالدارمي ، المتوفي سنة : ٢٢٧هـ .

١٢- صحيح الإمام مسلم ، بشرح الإمام محي الدين أبي زكريا يحي بن شرف النووي، تحقيق: صلاح عويضة وآخر ، دار المنار .

١٣- صفوة التفاسير، للشيخ محمد على الصابوني ، دار الصابوني .

١٤- المصباح المنير في غريب الشرح الكبير ، للعلامة احمد بن محمد المقرى الفيومي الرافعي، دار الفكر .

****